

يوميات التنقيب الأثري في جرش

(١٤٣٨-١٤٤١هـ / ٢٠١٧-٢٠٢٠م) [*]

أ. عبد الكريم بن علي آل احمد القحطاني

(*) دراسة منشورة في كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، لغيثان بن جريس

(الطبعة الاولى) (الرياض: مطابع الحميضي ، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م) (الجزء الثاني

والعشرون)، ص ص ٤٦٨-٤٨٣ .

ثالثاً: يوميات التنقيب الأثري في جرش (١٤٣٨-١٤٤١هـ/٢٠١٧-٢٠٢٠م). بقلم. أ. عبد الكريم بن علي آل أحمد القحطاني^(١).

م	الموضوع	الصفحة
أولاً	تمهيد	٤٦٨
ثانياً	أربعة مواسم تنقيب في جرش الأثرية	٤٦٩
	١-الموسم التاسع (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م).	٤٦٩
	٢-الموسم العاشر (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م).	٤٧٤
	٣-الموسم الحادي عشر (١٤٤٠هـ/٢٠١٩م).	٤٧٦
	٤- الموسم الثاني عشر (١٤٤١هـ/٢٠٢٠م).	٤٨٠
ثالثاً	خاتمة القول.	٤٨٣

أولاً: تمهيد.

لا يجدر بالمؤرخ أن يظل منعزلاً بين أمهات الكتب التاريخية دون الوقوف بشكل مستدام على مستجدات التنقيب الأثري، وكذلك الآثار لا ينبغي له أيضاً أن ينعزل في حضرة الآثار دون أن تكون له خلفية تاريخية شاملة حول الموقع الذي يعمل فيه؛ فالتوازن في هذا الأمر ضرورة وحاجة ملحة.

إن المصادر التي تناولت جرش يقيناً هي شحيحة؛ فمنذ أواخر القرن السادس الهجري توارت المدينة في ظلمة التاريخ، فاندثرت آثارها وانقطعت أخبارها. وفي هذا الكتاب لا أزعم أنني سأضيف شيئاً إلى جرش؛ فلست بمؤرخ ولا آثري، فقد سبقني من لهم الفضل الكبير، ونحن مدينون لهم بذلك، لكن في تقديري أن خير من كتب وألف عن جرش وتاريخها هو أستاذنا الباحث والمؤرخ محمد بن أحمد بن معبر في كتابين هما غاية في الأهمية؛ فالأول يحمل عنوان (مدينة جرش من المراكز الحضارية القديمة)، والآخر (قصة البحث عن جرش)، وبدون أي مبالغة، من يكتب عن جرش لا يمكنه القيام بذلك بدون الاتكاء على مؤلفات ابن معبر؛ فهي المفتاح الذي أدخلني إلى جرش، وعرفتني بتاريخها^(٢).

(١) عبد الكريم القحطاني من مواليد مدينة خميس مشيط عام (١٤١٧هـ/١٩٩٧م). نال تعليمه العام والجامعي في حاضرة أبها، حصل على بعض الشهادات والجوائز المحلية، نشر مقالات عديدة في بعض الصحف السعودية، له عدد من المؤلفات، مثل: (١) المنصور بن أبي عامر في الذاكرة الأندلسية. (٢) قرية آل عمرة (المكان، والزمان، والانسان). (٣) يوميات التنقيب الأثري في جرش. مهتم بالتاريخ والآثار، وهو شاب نشط وله طموحات عالية وعديدة، وعلى قدر جيد من الأدب وحسن الخلق. (ابن جريش).

(٢) للمزيد عن تاريخ مخلاف جرش انظر غيثان بن جريس "تاريخ مخلاف جرش خلال القرون الإسلامية الأولى". مجلة العصور. مج (٩)، ج ١ (رجب/١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ص ٦٣-٧٨. للمؤلف نفسه: دراسات في

ومما قد يميّز هذا البحث أن مؤلفه تدرب وشارك في التنقيب بموقع جرش الأثري، خلال أربعة مواسم متتالية: (التاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر)، وكان ذلك ضمن مشاركة الفريق الطلابي من جامعة الملك خالد مع البعثة السعودية التابعة لهيئة السياحة والتراث الوطني، في أعمال الحفريات الأثرية. وهنا يدون الكاتب تجربته في المشاركة في التنقيب بموقع جرش الأثري، عبر استعادة الذكريات من مشاهدات وانطباعات خلال المواسم الأربعة التي شارك بها، وللتعبير أيضاً عن أفكاره الذاتية، مما يؤدي إلى التعرف على رغباته وأحلامه، بالإضافة إلى تحديد أهدافه وتطلعاته المستقبلية نحو جرش، مما يعكس نبض دواخله، وحقيقة أعماقه غير المكتشفة.

الحقيقة أنني وقفت حائراً أمام الورقة البيضاء، فمن أين أبدأ؟ أو ما هو المهم لتسجيله عن جرش؟، لكنني قررت أن أترك العنوان لكلماتي كي تتدفق، وأن أكون صادقاً وأميناً مع نفسي، وأحاول أن أكتب مذكرات مفيدة في الوقت الراهن ومؤثرة على المدى البعيد، أستعرض فيها المكاسب السريعة التي حققتها على المدى القصير، والأحداث المهمة التي كنت شاهداً عليها، وما الذي تعلمته منها، ومن هم الأشخاص الذين أشعر بالامتنان لهم. بالإضافة إلى إلقاء الضوء على الغاية من التنقيب في جرش، وما يكمن فيه من قيم ومعان تقدمها لنا الآثار ذاتها، بتجسيدها صورة الإنسان الجرشى القديم؛ فهي تشف عن أفكاره وعقيدته، وتعبّر عن إمكانياته المادية وقدرته على تشكيلها، وتحدد لنا ذوقه وفنونه^(١).

ثانياً: أربعة مواسم تنقيبيه في جرش الأثرية:

١- الموسم التاسع (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م):

على حد علمي فإن سليمان شفيق باشا هو أول من كتب عن جرش (من الناحية الأثرية) في العصر الحديث؛ فالذي وصل إلينا من كتب الرحالة الأجانب ممن زاروا

تاريخ تهامة والسرارة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيط (ق١-ق١٠هـ/ق٧-ق١٦م) (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ج١، ص٩٣-١٢٦. للمؤلف نفسه: القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م) (الطبعة الأولى)، ج١، ص١٢-٢٠٣. (الطبعة الثانية: مطبوعات جامعة الملك خالد، ١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م)، ص١٢-٢٠٣. وجميع البحوث والكتب السابقة على موقع غيثان بن جريس الإلكتروني (prof-ghithan.com).

(١) اشكر الأستاذ عبد الكريم القحطاني على هذه المبادرة، وجرش فعلاً من المواقع التاريخية القديمة في شبه الجزيرة العربية. وهناك مواقع أخرى كثيرة في عموم بلاد تهامة والسرارة وتستحق العناية والحماية والدراسة والتوثيق. أمل أن نرى مثل هذا الشاب الطموح الذي يوثق شيئاً من تاريخ جرش فيكون لهم بصمة في مواقع عديدة في جنوب المملكة العربية السعودية. كما أن الجامعات المحلية (الملك خالد، وجازان، ونجران، والباحة، وبيشة، والطائف) عليها مسؤوليات كبيرة تجاه خدمة تاريخ واثار وموروث وحضارة البلاد السرية والتهامية الممتدة من الطائف ومكة إلى جازان ونجران. (ابن جريس).

عسير قبل عهد سليمان شفيق باشا، لم نجد فيها أي إشارة إلى جرش. لكن من يدري؟ ربما تكشف لنا الأيام القادمة وتطالعنا بأحد من الرحالة والمستشرقين الأوروبيين قد زار هذا الموقع الأثري وسجل معلوماته قبل سليمان شفيق باشا، ففي كتاب (حضارة العرب) قال المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: "تقع بلاد عسير الواسعة بين الحجاز واليمن، وكان الأوروبيون يجهلون حتى أوائل القرن التاسع عشر، وهي ذات قرى مهمة كثيرة..". وهذا يمنحنا أملاً حول إمكانية وجود جرش في دفاتر وكتب رحالة غربيين مجهولين^(١).

إن الجزء الصغير المحافظ عليه الآن من كامل البلدة الأثرية يقع داخل سور يتخذ شكلاً مستطيلاً، ويمتد على طول الموقع من الجنوب إلى الشمال تلال أثرية، تتركز كثافتها في المنتصف، وفي الجهة الشرقية، وإهمال جرش، وتأخر الاهتمام بها؛ أمرٌ غير مبرر إطلاقاً! فقد ظل الموقع الأثري مهملاً سنين طويلة! لكن أن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي، ففي عام (١٣٢٩هـ/٢٠٠٨م) انطلق في بلدة جرش أول موسم تنقيب، ليبلغ معه فجر المدينة البائدة بعد ظلمة طويلة، وحينها كان الفريق مشتركاً (سعودي أمريكي)^(٢)، ثم توالى المواسم بعد ذلك وصولاً للموسم التاسع الذي كان أول موسم أشارك فيه.

جاءت هذه المشاركة تنفيذاً لتوجيهات رئيس الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سليمان بن عبدالعزيز آل سعود، بإشراك طلاب جامعة الملك خالد في التنقيب بموقع جرش الأثري، وتأتي هذه المشاركة أيضاً إيماناً من جامعة الملك خالد بأهمية مثل هذه الأنشطة والمشاركات لطلاب الجامعة، وبناء على توجيهات معالي مدير جامعة الملك خالد الأستاذ الدكتور فالح السلمي بالمشاركة في هذه الأعمال، وفي الموسم التاسع عام (١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) نستطيع أن نقول: إنها كانت أول مشاركة فعلية لجامعة الملك خالد في أعمال التنقيب بموقع جرش الأثري؛ فالمشاركات السابقة لا أقل من أهميتها، لكنها كانت مشاركات مقتصرة على المسح الهندسي من

(١) هناك من سبق سليمان شفيق باشا في العصر الحديث وذكر لمحات من تاريخ بلاد جرش، فالمصادر اليمنية وخاصة الزيدية ذكرت جرش وأهلها خلال القرنين (١٢-١٤هـ/١٩-٢٠م)، وهناك كتب تراثية إسلامية قديمة فصلت الحديث عن جرش، كما أن الوثائق الحديثة لا تخلو أيضاً من شذرات عن أوطان جرش وما حولها، أما الرحالة العرب والأجانب فهم أيضاً ساهموا في الحديث عن تاريخ جرش أو سروات عسير منذ القرن (١٢هـ/٢٠م)، أمل أن نرى باحثاً جاداً يدرس تاريخ جرش أو بلاد رفيدة فحطان وخميس شهران خلال العصر الحديث، فهو موضوع جديد يستحق الخدمة العلمية والتوثيقية. (ابن جريس).

(٢) هناك مواقع كثيرة في بلاد السروات وتهامة غير جرش تستحق أيضاً العناية والدراسة العلمية الرصينة، وإذا كانت بعض الدراسات في مجلة اطلال، أو بعض البحوث والرسائل العلمية عن جرش وغيرها من المواقع الأثرية في جنوب المملكة العربية السعودية قد نشرت فإنها لا تكفي وتحتاج هذه الناحية إلى دراسات أثرية أفضل وأعمق. (ابن جريس).

قبل طلاب كلية الهندسة دون العمل بشكل مباشر في الحفريات الأثرية^(١)، وفي صيف ذلك العام التقيت بالدكتور علي مرزوق أستاذ الفنون المساعد بجامعة الملك خالد الذي كان يعمل حينها على تكوين فريق نوعي من طلاب الجامعة؛ للمشاركة في التنقيب بموقع جُرش، فانضمت للفريق، كان الدكتور علي متحمسا للعمل، وشجّعنا على أن تكون المشاركة في هذا الموسم فعلية ذات أثر وفائدة^(٢).

كنت أشعر بالانتماء الفطري لهذه البقايا من المباني الأثرية؛ فتلك الأطلال الطاعنة في التاريخ، هي عمقنا ومصدر حقيقي للإلهام، ومن الواجب أن نساهم في الكشف عن أسرارها المخبأة تحت هذه التلال الركامية، ووقتها كنت أمل -ولا زلت- أن نكتشف شيئا يضيء لنا جزءا من الظلمة التاريخية الممتدة من أواخر القرن السادس وحتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري.. فالآثار هي مصدر التاريخ الحقيقي الذي لا يقبل الشك، ويجب الاستفادة منها^(٣).

أسئلة محيرة تتلاطم بها الأفكار! لم هذا الفراغ التاريخي؟ إنها فجوة كبيرة جدا! هل يعقل أننا لا نعرف شيئا كثيرا عن سبعة أو ثمانية قرون من تاريخ منطقتنا؟ ففي حقيقة الأمر ليس لدينا رؤية واضحة عن واقعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي! كل ما يستطيع المؤرخون قوله: "إنها كانت كيانات قبلية لها تجمعات قروية نظامها الإداري والسياسي أشبه ما يكون بالنظام الفدرالي"^(٤)! ترى هل أن الأوان لتُخرج

(١) ما زالت جامعة الملك خالد وغيرها من جامعات الجنوب السعودي مقصرة جدا في دراسة آثار وموروث مناطق الطائف، والباحة، وعسير، وجازان، ونجران، وما تم القيام به حتى الآن لا يرتقي إلى مستوى الأبحاث العلمية الجيدة والرصينة، والواجب على هذه الجامعات أن تفتح كليات أو أقساما لعلوم الآثار، ثم تدعمها معنويا وماديا لدراسة موروث هذه البلاد وآثارها السطحية والمدفونة. (ابن جريس).

(٢) للأسف أن جامعة الملك خالد وجامعات السروات وتهامة (من الطائف ومكة إلى جازان ونجران) تقتصد إلى أساتذة متخصصين في علوم الآثار والنقوش والرسومات الصخرية، وإذا كانت هناك بعض الأساتذة المتعاقدين في أقسام التاريخ بهذه الجامعات فإنهم معنيون فقط بالمحاضرات والتدريس داخل القاعات دون أن يجدوا دعما أو تشجيعا للخروج إلى الميدان ودراسة تاريخ وتراث وآثار البلاد. (ابن جريس).

(٣) يا عبد الكريم بلاد السروات وتهامة ذات تاريخ وحضارة تعود إلى العصور الحجرية، وفيها آثار كثيرة مدفونة وتستحق البحث والدراسة، وجرش ناحية من بلدان كثيرة في هذه الأوطان، وأنا أنادي لدراسة هذه البلدان منذ أربعين عاما، لكن حتى الآن لا نرى جهودا جادة مدعومة معنويا وماديا (رسميا وأهليا)، أمل أن نرى ذلك قريبا. (ابن جريس).

(٤) ما من شك أن بلاد السروات من ظهران وقحطان إلى الطائف كانت وما زالت مستوطنة بقبايل عربية سكنت فيها من آلاف السنين، وهذه القبائل لها تاريخ وحراك حضاري على مر التاريخ، لكنه لم يدون ويحفظ وربما ذلك يعود لظروف أهلها الجغرافية، ورغبتهم في الانعزال والاستقلالية، ومع ذلك لا نعرف الشيء الكثير عن حياة وتراث تلك القبائل والعشائر وبخاصة في عصور ما قبل الإسلام، وخلال القرون الإسلامية المبكرة والوسطية وبداية الحديثة. (ابن جريس).

جَرَشَ ما في جعبتها من أسرار قد تعيد كتابة التاريخ، أو بالأحرى تملأ بعض الفراغات في تاريخنا؟^(١) أسئلة لا مفر منها.

بعد أيام توجهنا إلى جَرَشَ؛ فكان أول من التقيته في الموقع الدكتور عوض الزهراني، ما إن عرفته بنفسي حتى أخذ بيدي وجال بي أرجاء المكان يعرفني بمستجدات التنقيب، ويشرح لي أجديات علم الآثار، ولم تنته تلك الجولة حتى أحاطني بمعلومات غزيرة. عندها علمت أنني أمام رجل متضلع في علم الآثار، لقد كان خلوقاً ومتواضعاً يحظى بمحبة الجميع، أخذت في الحديث معه طوال ذلك اليوم؛ فرأيت الرجل يحلق بجناحي الآثار والتاريخ، وهذه ميزة يتميز بها الدكتور الزهراني عن غيره من بعض الأثاريين، فكثير منهم يعملون في أي موقع أثري بشكل جامد؛ فلا يتعاطون مع المكان إلا من ناحية أثرية صرفة (كما يفعل المساح الهندسي)، ومعلوماتهم التاريخية حول الموقع الذي يعملون فيه قد تكون محدودة للغاية، وقد لمست هذا في بعضهم^(٢).

أما الدكتور عوض الزهراني فقد كان بحق من المؤرخين الجادين، فلا يملّ معه حديث، ولا جليس أو أنيس أحسن منه، وددت لو أثنى ركبتي عنده لأنهل من علمه، بل تمنيت حينها لو كان رئيس الفريق الحالي، أو لو أن الزمن يرجع للخلف حينما كان رئيساً للفريق في المواسم الماضية؛ فأحظى بالتدريب على يديه والاستفادة من خبرته، لكن من المؤسف أنه لم يعد رئيساً للفريق، وقد أتى للموقع زائراً يطالع على مستجدات التنقيب^(٣).

انغمست أعمل في التنقيب الأثري بكل شغف، وأذكر في أحد الأيام وبينما كنت أعمل في أحد مربعات الحفرية الأثرية، صاح خلفي أحد أفراد البعثة فرحاً: "اكتشاف،

(١) أمل ذلك، وليست جَرَشَ وحدها، فالذهاب في مناكب السروات وتهامة من جازان ونجران إلى حواضر الحجاز الكبرى يشاهد الكثير من النقوش والرسومات الصخرية التي تعود إلى آلاف السنين، ونرى الكثير من المواقع والحواضر التاريخية التي بادت واندثرت ودفنت معالمها، وهي بحاجة إلى من ينقب عنها ويدرس آثارها التاريخية. (ابن جريس).

(٢) في بلادنا - والحمد لله - جامعات وكليات، وأقسام علمية، وفي بعض وزاراتنا ومؤسساتنا العلمية والإدارية مراكز بحوث وأقسام علمية، لكنها جميعها لم تصل إلى المستوى القوي والعالي المؤسسي لدراسة الآثار في عموم المملكة العربية السعودية، أرجو من وزارتي التعليم والثقافة، والهيئات العلمية الأخرى أن تعمل على مشروع كبير وشامل لدراسة تراث وآثار البلاد، فهي تستحق ذلك، وجديرة إلى أن تخدم بشتى الوسائل. (ابن جريس).

(٣) عرفت الكثير من الأساتذة الأثريين السعوديين المتخصصين في بلادنا، وقد بذل بعضهم جهوداً جيدة أثناء عمله في الجامعة أو مؤسسات أخرى، لكنهم بعد إحالتهم للتقاعد لم أعد أرى لهم جهوداً في مجال تخصصاتهم، وربما عدم دعمهم معنويًا وماديًا وأحيانًا نسيانهم جعلهم يخلدون إلى الراحة، وعدم مواصلة أعمالهم العلمية، وللأسف - كما ذكرت - أننا نفتقد إلى مراكز بحوث قوية ومدعومة ماديًا وبشريًا ومعنويًا. ولو وجد مثل هذه المراكز المؤسسية فإنها سوف تواصل عملها بشكل جيد، وتستقطب الخبراء والأساتذة المتميزين المحليين والعالميين في علوم الآثار واللغات القديمة وغيرها. (ابن جريس).

اكتشاف " فهبَّ الجميع نحوه والتفوا حول صخرة تحتوي على نقش كتابي بخط كوفي غاية في الروعة، يتكون من أربعة أسطر، ومن محاسن الصدف أن عوض الزهراني كان موجوداً في ذلك اليوم، فأتى مسرعاً متلهفاً، فجلس يتفحص الصخرة بضع ثوان، وأخذ يقرأ النص المنقوش بسرعة مدهشة: "بسم الله الرحمن الرحيم"، اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين إلى ميقات يوم معلوم؛ فاجعل أمّتك... انقطع النص! ولا ندري لماذا توقف الكاتب عند كلمة (أمّتك)، فلربما فضّل كتابة النص على صخرة أخرى مناسبة! قال د. عوض الزهراني متحسراً: "ليتّه ذكر، وأكمل الاسم؛ لعرفنا على الأقل اسم القبيلة"^(١). بمحض الصدفة البحتة بعد ما يقارب ساعة أو ساعتين من اكتشاف الصخرة، جاء التلفزيون السعودي للقيام بتغطية مباشرة لأعمال التنقيب في جرش، يقدمها المقدم عبد الله السالمي، وعرضت هذه التغطية المباشرة في برنامج صباح السعودية، وفي هذه التغطية تم التصوير والإعلان عن اكتشاف صخرة تحتوي على نقش كتابي إسلامي^(٢).

وانتهى موسم التنقيب هذا، بمكاسب معنوية جمّة، وانطباعات ومفاهيم جديدة تكونت لدي، من أبرزها:

(أ) لا بد من إعادة الاعتبار لجرش، ونقلها من التاريخ إلى الجغرافيا، وجعلها هوية رمزية للمنطقة؛ فهي أهم وأولى من بعض القرى التراثية التي جعلناها عنواناً أثرياً للمنطقة، بينما همّشنا جرش ذات المباني العملاقة والمهيبة، فضلاً عن عمقها التاريخي المتجذر^(٣). (ب) رسمه (الأسد والثور) فيها شيء من التحدي؛ فقد أخبرني الدكتور عوض الزهراني أن أبعادها ودقتها لا تظهر بوضوح إلا خلال قرابة ساعة واحدة في منتصف النهار. (ج) الموقع تعرّض للإهمال والنسيان عدة عقود. (د) جرش موقع ما يزال بكراً، يخترن الكثير من الأسرار التي ستعوض النقص الكبير في كتب التاريخ. (هـ) مخطئ من يتصور أن الموقع فقيرٌ من الناحية الأثرية. (و) يحتاج الموقع إلى المزيد

(١) الذاهب في بلدان السروات وتهامة يجد جبالها، وهضابها، وأوديتها مليئة بالكتابات والنقوش والرسومات الصخرية، وبعضها تعود إلى ما قبل الإسلام بالآف السنين. وإن كان بعض الباحثين جمعوا بعضها، ودرسوها، ونشروها، لكن ما زال هناك مخزون كبير من هذه المصادر المادية. ناهيك عن الآثار السطحية والمدفونة الأخرى فهي بحاجة إلى جهود حكومية وأهلية كبيرة يجب البحث عنها وحفظها ودراستها. (ابن جريس).

(٢) ما زال الإعلام مقصراً في الحديث عن المواقع الأثرية في بلادنا، وإن ذكرت بعض المواقع، فالحديث عنها لا يتجاوز بهرجة وتلميحات إعلامية. والمطلوب من وزارات التعليم والإعلام، والثقافة، والهيئات المتخصصة أن تتعاون في خدمة الآثار في بلادنا ودراستها دراسات علمية جادة. (ابن جريس).

(٣) أشكرك يا عبد الكريم في حرصك على جرش الأثرية، لكن في بلاد السروات وتهامة مواقع أثرية مهمة في مستوى جرش، وربما فاقتها في بعض الجوانب التاريخية والحضارية، وأرجو من مؤسسات الدولة العليا وجامعاتها وكلياتها العلمية أن تولي هذا الميدان كبير رعاية واهتمام، فهو جدير بالدعم والرعاية المادية والعلمية. (ابن جريس).

من اهتمام الإعلام، وذلك بتسليط الأضواء بشكل متواتر حتى ترسخ في الأذهان صورة هذه الآثار. (ز) من المؤسف أن (نادي جرش الرياضي) أشهر بكثير من جرش الأثرية^(١).

٢- الموسم العاشر (١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م) :

مضت الأيام وجاء عام (٢٠١٨هـ / ٢٠١٨م) وفيه بدأت البعثة السعودية إكمال أعمال التنقيب في جرش للموسم العاشر، حينها اجتمع الفريق الطلابي، وانطلق إلى الموقع بقيادة الدكتور علي مرزوق، الذي كان يحثنا على المشاركة بشكل جدي، ويدعونا للاستفادة من هذه الفرصة لاكتساب خبرة في قواعد التنقيب الأثري، ورأيت شغوفاً إلى حد كبير، يحب العطاء والمساهمة الفاعلة، حتى إذا نفذت همة أحد أعضاء فريقنا الطلابي، لا يلبث أن يجد دفعة معنوية من الدكتور ابن مرزوق، تعينه على المواصلة لإكمال المهمة، لقد كان له الفضل في تدريبنا على طرق ومهارات التنقيب الأثري^(٢)، والحقيقة، أن هذا الموسم لم يخل من تعكير الأجواء عبر عنتريات ومناكفات غريبة من بعض أفراد بعثة الهيئة! (قلت البعض وليس الكل)، ولم أجد لهذا سبباً موضوعياً، لكنني تجاهلت الأمر، وتابعت عملي^(٣).

قد حاول أحدهم استفزازي قائلاً بنبرة تهكم ممزوجة بابتسامة ساخرة: "ما شأن طالب القانون بالآثار! على الأقل لو كان طالب تاريخ أو هندسة لقلنا نعم"، وأراد بهذه الحجة إقصائي من الفريق الطلابي، لكن بلا جدوى وربما من حيث المبدأ قد توافقه الرأي في كلامه أيها القارئ الكريم، لكن لو لم أكن جديراً بهذا العمل لما اختارني الدكتور علي بن مرزوق من بين عشرات الطلاب، ووضع ثقته في للمشاركة في التنقيب، ويضاف إلى ذلك لم يعلم ذلك المعارض أنه قبل شهرين من هذا الموسم تم تكريمي من رئيس الهيئة الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز في (الملتقى الأول لآثار المملكة العربية السعودية)، وعلى كل، ها هو عالم الآثار الشهير كارتر مكتشف مقبرة (توت عنخ آمون) كان رساما لكنه سقط في غرام الآثار المصرية!^(٤).

(١) للأسف أن كثيراً من الأمور الهزلية أو الترفيفية مقدمة ومفضلة ومدعومة بشكل كبير، بخلاف الأعمال العلمية الجادة، أو كل عمل في خدمة البلاد والعباد مثل دراسة الآثار والحفاظ عليها، أو حماية التراث والموروث الحضاري الذي عرفته البلاد على مر التاريخ فلا يجد ذلك الدعم الكبير، وأحياناً لا يلتفت إليه. (ابن جريس).

(٢) تشير يا عبد الكريم إلى طلاب جامعيين وأستاذ واحد ذهبوا إلى التنقيب، ولم تشر إلى أساتذة آخرين متخصصين في علوم الآثار والنقوش والكتابات واللغات، وهذا الجهد الذي يقوم به هذا الفريق المذكور في ورقتك ما زال محدوداً وغير مدعوم سياسياً، ومالياً، ومعنوياً. وقد شاهدت مثل هذه الفرق المحدودة خلال العشرين سنة الماضية، وهم يذهبون إلى بعض المواقع الأثرية في بلاد السروات وتهامة ثم يخرجون بنتائج ناقصة ومحدودة لا تقيد كثيراً في البحث العلمي الكبير والعميق والرصين. (ابن جريس).

(٣) لا تشغل بالك بمثل هؤلاء المثبطين الذين يكثر من النقد الكلامي، لكنهم لا يفعلون شيئاً. وأمثالهم كثير في مجتمعنا، والعامل العاقل الجاد لا يلتفت لمثل هؤلاء، لأنهم فقط يجمعون بالكلام، ولا فائدة منهم. (ابن جريس).

(٤) يا عبد الكريم قابلتك مرات محدودة، واتضح لي أنك طالب علم جاد، لكن لا تغتر بالبريق الإعلامي، والثناء والمدح، وعليك أن تعمل بجِد واجتهاد وصمت، وإن فعلت ذلك فسوف تحقق نجاحات جيدة في دراسة التاريخ وعلم الآثار، ومن خلال دراساتي في أوروبا وأمريكا وزياراتي للكثير من الجامعات، والكليات،

ومع هذا فلا يجدر بجامعة الملك خالد أن تظل هكذا دون كلية للآثار والتراث، خصوصاً أنها جامعة تقع في منطقة عسير التي تحتل المرتبة الأولى في عدد مواقع التراث العمراني، إضافة إلى وجود أكثر من (٢٠٠) موقع أثري موثقة في السجل الوطني للآثار، وهو عدد ليس بالقليل، والمنطقة على الأقل في أمس الحاجة إلى قسم أكاديمي للآثار إن لم تكن كلية تسعى من خلال برامجها المتنوعة إلى إثراء البحث العلمي والارتقاء بمستوى الطلاب، وتكون نواة لتخريج كوادر مؤهلة في مجال الآثار وعلومه، وتقديم معرفة علمية متميزة، وأيضاً تقوم الكلية سنوياً بمواسم للتنقيب في موقع جرش الأثري، فتتضافر الجهود بين الهيئة والجامعة؛ الأمر الذي سيقب في صالح جرش وغيرها، وسيسرّع في اكتشاف المزيد من الآثار مما يمنح أبناء المنطقة فرصة للمشاركة في خدمة تراثهم وأثارهم^(١).

الجديد في هذا الموسم، أن فريقنا الجامعي عمل في مربع خاص، واكتشفنا بعض الظواهر الأثرية كالجدران الصغيرة، والكسر الفخارية والزجاجية والخزفية، من خلال أعمال التنقيب لاحظت حجارة مصفوفة بدت لي كأنها ملامح لقاطع جداري، وبالفعل حصل ما توقعته فمع استمرار الحفر تبين أنها أساسات لجدار قديم^(٢).

(* مر هذا الموسم سريعاً، واستخلصت منه بعض الرؤى مثل:

(أ) المنطقة تستقر لكوادر آثارية، تأخذ زمام المبادرة، وتقوم بأبحاث علمية تنفض الغبار عن هذه المدينة البائدة والغنية بآثار غير مكتشفة بعد، وبالتأكيد لا يمكن اكتشاف كل أثارها، فلا بد أن يبقى الكثير للأجيال القادمة^(٣). (ب) العمل الجماعي يكون مثمراً بالوفاق والتعاون بين أفراد الفريق ولا يكون بغيره. (ج) التنقيب الأثري يحتاج إلى صبر ونفس طويل في البحث، ويجب ألا يجد الملل سبيلاً إلى الباحث، واليأس آفة لا بد من مكافحتها بالأمل. (د) الموقع واسع وكبير، وأعمال التنقيب تسير بوتيرة بطيئة جداً؛ ففي السنة موسم

والأقسام العلمية، ومقابلة الكثير من المستشرقين، وبخاصة المهتمين بالتراث العربي والإسلامي، رأيت بعضهم لا يحملون درجة الدكتوراه، وأعلى شهادة عندهم درجة البكالوريوس في علم من العلوم، لكنهم متميزون ومبدعون في بعض المعارف، بل فاقوا حملة الدرجات العليا من خلال أبحاثهم وإنجازاتهم العلمية المنشورة. (ابن جريس).

(١) أضمت صوتي إلى صوتك فعلى جامعة الملك خالد وغيرها من جامعات الجنوب السعودي أن تنشئ كليات للتراث والآثار، وهذا من الواجب عليها لخدمة أرض وسكان عموم السروات وتهامة. (ابن جريس).

(٢) عموم السروات وتهامة مليئة بالآثار المدفونة، وما زال البحث عنها واكتشافها متأخراً كثيراً، نأمل من الجامعات المحلية ورجال الأعمال، ومؤسسة الدولة الرسمية أن يتعاونوا في البحث عن هذه المواقع وخدمتها علمياً وبحثياً ومادياً ومعنوياً. (ابن جريس).

(٣) كما ذكرت سابقاً، فجامعاتنا خالية من المتخصصين في علوم الآثار السطحية والمدفونة، وإذا كان هناك أساتذة غير سعوديين في بعض أقسام التاريخ في عسير وما حولها، فهم مخصصون للتدريس النظري في كلياتهم وأقسامهم، دون أن يعطوا فرصة ودعماً لدراسة آثار المنطقة. (ابن جريس).

واحد مدته (٣٠) يوماً؛ عشرون منها عمل ميداني، والباقي يستغرقه العمل المكتبي. (هـ) موسم التنقيب الواحد يكلف الهيئة مبالغ مالية كبيرة، فلماذا لا تتم دعوة رجال الأعمال في المنطقة لدعم وتمويل مواسم تنقيب إضافية في موقع جرش وغيرها من المواقع الأثرية في جنوب المملكة العربية السعودية. (ز) بدلا من استقطاب العمالة الوافدة في العمل طوال الموسم بأجرة يومية للمساعدة في الحفريات، حري بالهيئة أن تستغلها فرصة لجعلها وظائف موسمية لشبابنا السعوديين، فيكتسبون من خلالها الفائدة المادية والمعرفية^(١).

٣- الموسم الحادي عشر (١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م)؛

انطلق الموسم في عام (١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م) وتعرفت على أحد أعضاء بعثة الهيئة، الأستاذ إبراهيم حسن مشبي، فقد كان يتعامل معنا نحن الفريق الطلابي الجامعي بشكل إيجابي، وساعدنا كثيرا على اكتساب المزيد من مهارات التنقيب، واستندت من تحليلاته وتفسيراته المنطقية لبعض الظواهر الأثرية المكتشفة، ولم يكن يتجاهل أي سؤال يُشكّل عليّ، فيجيبني فيه بإسهاب، ويعرفني بأشياء لم أكن على دراية بها^(٢). وأذكر أنني ذات يوم ونحن نتحدث عن الآثار، وفي معرض الحديث أخبرت الأستاذ إبراهيم، أن أحد الدكاترة في قسم القانون، يدرسنى مناهج البحث القانوني، كلفني القيام ببحث في أحد موضوعات القانون، وأقترح لي موضوع (الركن المعنوي في القانون الجنائي)؛ إلا أنني فكرت في موضوع ينسجم مع اهتمامي، فارتأيت البحث في موضوع (حيز الآثار في قوانين دول المشرق العربي)؛ فاستحسن الدكتور مني هذا العنوان، وقد بدأت الكتابة فيه.. فما أن سمع الأستاذ إبراهيم هذا العنوان، حتى وثب إلى حقيبته القريبة ثم أخرج منها كتابا ووضع في يدي قائلا: "خذ هذا الكتاب هدية لك، لعله يعينك على بحثك"؛ كان الكتاب يحمل عنوان (نظام الآثار والمتاحف في المملكة العربية السعودية)، فأكبرت الأستاذ إبراهيم على هذا الموقف النبيل الذي كان له أعظم الأثر، وهو مثال يسير من جملة المواقف للأستاذ إبراهيم^(٣).

(١) شخصت يا عبد الكريم عقبات كثيرة في النقاط المذكورة أعلاه، وكلما كان العمل غير مؤسسي، وقائماً على الجهود الفردية، أو الموسمية، أو الاحتفائية، فالنتائج سوف تكون ضئيلة، وأحيانا غير موجودة، فتجن بحاجة ماسة إلى جهود مؤسسية تدعم من كل قطاعات الدولة الرسمية والأهلية، كما أننا بحاجة إلى علماء وخبراء آثار كبار، يتم جلبهم من بعض الجامعات والمؤسسات العلمية الإقليمية والعالمية، وإن تم ذلك فسوف نسير في الطريق الجاد نحو دراسة آثارنا وموروثنا الحضاري المادي والمعنوي، السطحي والمدفون. (ابن جريس).

(٢) في مجتمعنا مثلك يا عبد الكريم والأستاذ إبراهيم حسن الذي أشرت إليه في المتن، وغيركما كثير، ممن سوف يعملون بجد وإخلاص، لكن إذا توفرت المظلة العلمية والإدارية القوية المدعومة بكل ما يخدم البحث العلمي، وما زلنا متأخرين في هذا الجانب، أمل أن نرى في قادم الأيام وزارات وهيئات كبيرة تتولى التخطيط والدعم الكبيرين لدراسة التراث والآثار في بلادنا. (ابن جريس).

(٣) المهم أن تتوفر الحاضنة الرئيسية التي ليس مهما إلا دراسة التراث والآثار بطرق علمية عميقة ومتقدمة، وفي الوقت نفسه تتمتع بصلاحيات وإمكانات معنوية ومادية لمواصلة أعمالها وإنجازاتها في ميدان الآثار. (ابن جريس).

في أحد الأيام حدث موقف طريف، فبينما أنا أعمل في الحفريات، فجأة دفعني أحد الأصدقاء بقوة، وكادت أسقط أرضاً من قوة الدفع، ثم أشار إلى عقرب أسود كبير كان على مقربة مني عند ساقي، وأنا مثني الركبة على الأرض، كاد يلدغني لولا عناية الله ثم تنبيه صديقي، ورأساً أخذت حجراً كبيراً وقتلته بها، عندها أطلق عليّ الدكتور علي مرزوق مازحاً لقب (صائد العقارب)، لكن العبرة من هذا الموقف أن التنقيب الأثري يشوبه مخاطر وجود الآفات كالعقارب والثعابين، فأنت تحضر وتبحث في مواقع خربة منذ آلاف السنين، وربما أصبحت وكراً للأفاعي والعقارب السامة.

وفي صبيحة أحد الأيام أثناء أعمال التنقيب رأيت عمالاً يبنون قواعد منزل في أرض مجاورة للموقع، فذهبت إليهم ولدي قناعة راسخة أن مدينة جرش التاريخية لا يمكن اختزالها داخل السور فقط، وعندما وقفت على الأرض، وجدت عدداً من الكسر الفخارية الملقاة على السطح وكثيراً من قطع الأجر القديم، كانت قد نبشت، وظهرت مع حفر الجرافات، فأخذت أسأل العمال إن كانوا قد لاحظوا أساسات جدران قديمة أثناء الحفر؟ فأكدوا لي ذلك! فجمعت ما يمكن جمعه من تلك القطع ووضعتها في كيس صغير، وجعلتها فيما بعد من معروضات متحف الصغير الذي يقع في مركز الفرعين^(١).

خلال العقود والسنوات الماضية، وقبل تسوير موقع جرش الحالي، قُضمت رقعة جرش الأثرية بشكل جشع للغاية؛ فالعمران الحديث التهم أجزاء كبيرة من المساحة الأثرية، بل إن الجهة المطلّة على الطريق العام التجاري الممتد من طريق المدينة العسكرية باتجاه الشرق نحو جبل حمومة؛ لم يسلم هو الآخر من استغلاله محلات تجارية على أنقاض آثار لا تُقدّر بثمن. وكان يجب أن تكون حدود ومساحة موقع جرش الأثري ممتدة من جبل حمومة شرقاً إلى طريق المدينة العسكرية غرباً، لكن أما وقد سبق السيف العذل فلنحافظ على ما تبقى لدينا من مساحة محدودة للموقع^(٢).

مسؤولية الحفاظ هنا لا تقتصر على الجهات الحكومية وحدها؛ إذ لا بد من الوعي المجتمعي، وفي هذا الموسم رأيت شيئاً أزعجني كثيراً، فحتى موقع جرش الأثري لم ينجُ هو الآخر من عبث المخربين! فلو أنهم خربشوا بكتاباتهم على السور الإسمنتي للموقع لقلنا: هذا شيء معتاد، ألفنا رؤيته على جدران المدارس والحدائق والبيوت، لكن أن يتجاوز

(١) هذا تأكيد لما ذكرته عن غنى بلاد السراة وتهامة بالتراث والآثار الحضارية المتنوعة في أشكالها، وأهدافها وعصيرورها، وصارت الحجة قائمة اليوم على الجامعات المحلية فتؤسس كليات وأقساماً للآثار، ثم تدعّمها مالياً، وتجلب لها أساتذة خبراء جيدين في علوم النقوش، واللغات القديمة، والآثار المادية. (ابن جريس).

(٢) قصة عدم الوعي عند الناس، واهتمامهم بآثار بلادهم، وكل قديم، يعكس صورة من صور تاريخ وحضارة هذه البلاد، ما زالت غائبة، وعلى مؤسسات التعليم العام والعالي، والإعلام، والأفراد، والأسر أن تسعى إلى نشر الوعي عند أفراد المجتمع تجاه هذا الميدان الحضاري المهم. (ابن جريس).

المشكّل إلى داخل مواقع الآثار والكتابة على أساسات المباني الأثرية في الجهة الشمالية لموقع جُرش، فذلك بعدّ ذاته تعدّ سافر للغاية، ولا يمكن السكوت عنه إطلاقاً، لكنني قلت: "الحمد لله أن الرسمة الشهيرة للأسد والثور سلّمت من طلاء أولئك المتطفلين"^(١).

وأقول لا بد من اتخاذ إجراءات احترازية تحفظ الآثار الوطنية، كوضع كاميرات مراقبة على سور موقع جُرش الأثري لكشف أيّ تعديلات، فعند هذه الآثار التي لا تقدر بثمن يجب تسخير كافة الإمكانيات لحمايتها، والحيلولة دون الوصول إليها، والواجب تعميم هذه الفكرة على كل المواقع الأثرية في المملكة، وعدم التساهل في إيقاع أقصى العقوبة على من يتعدى عليها، وفقاً لنظام الآثار الصادر بموجب المرسوم الملكي رقم (٢٦م) ^(٢).

وقبل نهاية أعمال التنقيب في هذا الموسم زارنا وفد من أعضاء هيئة تدريس في جامعة الملك خالد، وعلى رأسهم الدكتور أحمد آل مريع عميد كلية المجتمع ورئيس نادي أبها الأدبي، وكانت الزيارة تهدف للتعرف على موقع جُرش الأثري، والاطلاع على مستجدات أعمال التنقيب، وخلال تجوّل أعضاء الوفد، كنت بصحبة الدكتور آل مريع، وقفنا عند رسمة الأسد الذي يصارع الثور، فأخذت أشرح معالم هذه اللوحة الفنية، ومدى البراعة في رسمها بأسلوب النحت البارز، ثم عرجت على النقش الكتابي المكتوب بخط المسند في أسفلها، فقاطعتني بسؤاله عما ترمز إليه هذه الرسمة، فما وسعني إلا أن أعلمته بالترجمة المعروفة والمكتوبة باللهجة السبئية، وهي: (أسدن نقرن، وثورن نعمن)، ثم ذهبت إلى التفسير الذي يقول بأنها قد ترمز للقوة والنماء أو ربما إلى الصراع بين القوة والضعف، وما إلى ذلك من تفسيرات مشابهة؛ فقال: "إن البقرة لها رمزية عميقة، فملك مصر رأى في منامه البقرات السبع التي يأكلهن سبع عجاف، فلعلها ترمز إلى تقلب الأحوال في هذه البلدة التاريخية"^(٣).

(١) ليس هذا الأمر مقصوداً على جرش فقط، وإنما أشاهد تدمير الطبيعة، وإتلاف الآثار، وكل تراث مادي قديم منذ بداية هذا القرن (١٥هـ/٢٠م)، وكوني أحد أبناء الجنوب السعودي، وسرت في مناكب هذه البلاد منذ تسعينيات القرن الهجري الماضي، فهناك الكثير من القرى القديمة، والطرق، والأحمية، والآثار، والمدرجات الزراعية، والمقابر، والكهوف، والأسواق الأسبوعية وغيرها امتدت يد الإنسان إليها، فخرّبها، ولم يحافظ على مورثها الحضاري. ناهيك عن التراث المعنوي، والآثار المدفونة فقد نالها ما جرى للآثار السطحية الآنف ذكرها. (ابن جريس).

(٢) نعم هناك قوانين وأنظمة أصدرتها الدولة بخصوص الآثار، لكن ما زال الفرد والمجتمع محتاجين إلى إرشاد ووعي تجاه هذا التراث والتاريخي الحضاري المحلي. (ابن جريس).

(٣) نحن لا نريد فقط زيارات شرفية، وأحياناً إعلامية ودعائية، فهذه الأسطوانة المتبعة والجارية في مجتمعاتنا، لكنها تنتهي أهميتها ونتائجها في اليوم نفسه، وربما أخذ بعضها يومين أو ثلاثة حتى أسبوع، الذي نريده ونتطلع إليه عمل مؤسسي يقوم على النظامية والجدية والاستمرارية في الوصول إلى نتائج علمية وعملية صحيحة صادقة. (ابن جريس).

وبعد انتهاء الموسم شاركت في زيارة قسم التاريخ بالجامعة إلى جُرش، وكان على رأسهم الدكتور سعد بن عثمان القحطاني والدكتور محمد منصور حاوي والدكتور سعد الحميدي، ومجموعة من أعضاء هيئة التدريس، وأطلعتهم على مستجدات التنقيب الأثري الذي قام به الفريق الطلابي الجامعي^(١).

(* وهنا أذكر بعض الرؤى والتصورات الواقعية حول جُرش، مثل:

(أ) لاحظت في هذا الموسم وجود الكثير من الكسر الزجاجية والخزفية في إحدى الطبقات الأثرية، وجذبتني براعة ودقة صناعتها وتشكيلتها، الأمر الذي يعكس مدى تطور صناعة الأواني في تلك الحقب، مقارنة بإمكانيات الصناعة في تراث منطقتنا الذي يمتد ل (٢٠٠) عام تقريبا، فنجد الأواني في هذا الماضي مجرد صناعات خشبية بدائية وبسيطة جدا! ولم يكن الزجاج والخزف معروفا لديهم، في حين أنه كان يُستخدم بكثافة في جُرش قبل عدة قرون^(٢). (ب) ولاستدراك ما سبق، ما كان ينبغي لي أن أعجب، وتلك الجدران المبنية من البازلت والجرانيت منحوتة بعناية فائقة، ومتناسقة فيما بينها بدقة متناهية، وصدق فيها وصف د. محمد آل زلفة عندما قال: "إن أحجار جُرش تضاهي بحجمها أحجار أهرامات الجيزة في مصر"؛ فعندما نقارنها بالمنازل الطينية نشعر بالخجل! فالهوية الأثرية لمنطقة عسير ينبغي أن تكون مباني جُرش العملاقة، وليست مباني (النفط) والمدماك، مع العلم أنه لا عيب فيها، لكن رسمه (الأسد والثور) أولى من (الطفشة) التي أصبحت شعارا سياحيا للمنطقة^(٣). (ج) حينما ذهبت إلى نجران رأيت رسمه الأخدود الشهيرة، وهي (الحصان) مرسومة على بوابة المدينة؛ حيث جعلت كشعار أو هوية رمزية لنجران، فلم لا تكون رسمه جُرش شعارا على بوابة محافظة أحد ريفية إن لم تكن لمنطقة عسير بأكملها؟!^(٤). (د) لا بد

(١) مع احترامي لكل الزملاء في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد، وأنا واحد منهم، لكن ليس لدينا الخبرة والتخصص الذي يخدم أثار جرش أو غيرها في منطقة عسير، نحن نتطلع من الجامعة أن تؤسس كلية أو قسم أثار يقوم على جمع ودراسة موروث وتراث وأثار عسير، وهي كثيرة جدا جدا. (ابن جريس).

(٢) يا عبد الكريم أنت غير متخصص في علم الأثار، وأدركت هذا التباين والاختلاف بين القديم والحديث، ولاحظت جودة القديم وتميزه، والواجب على مؤسسات التعليم العالي في منطقة عسير وما حولها أن تدرك أهمية هذا التراث الأصيل وتعمل من أجل حفظه وخدمته. (ابن جريس).

(٣) لا أتفق معك يا عبد الكريم، فالقديم والحديث تاريخ وحضارة عاشتها الأقوام في هذه البلاد، ولكل عصر ظروفه ومميزاته؛ ولا يجب أن نقلل من تاريخ وحضارة الأباء والأجداد خلال القرون الماضية المتأخرة، فهي حلقة وصل لما سبقها من التاريخ والتراث الحضاري، وربما حيك لجرش كونها مسقط رأسك جعلك تذهب إلى هذه الأقوال. وبلادنا (السروات وتهامة) ما زالت من البلدان الثرية بآثارها وتراثها الحضاري عبر أطوار التاريخ. (ابن جريس).

(٤) ليست نجران، أو جرش التي تحتوي أثار تاريخية قديمة، وإنما هناك مواطن أخرى عديدة من صعدة والحديدة جنوبا إلى مكة والطائف شمالا هي الأخرى مليئة بالآثار القديمة السطحية والمدفونة. (ابن جريس).

من تكثيف الزيارات الطلابية للمدارس والكليات (البنين، بنات) إلى موقع جرش الأثري؛ لترسيخ مدينة جرش التاريخية في ذاكرة الأجيال.

٤- الموسم الثاني عشر (١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م):

في عام (١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م) كان الموسم الرابع على التوالي الذي أنال فيه شرف التنقيب في جرش الأثري، وبتراكم الخبرة في التنقيب الأثري ما زلت أشعر أن هذا الموقع يخبئ بين طبقاته الأثرية معلومات سوف تسعف المؤرخين أو ستعيد كتابة تاريخ جرش، رغم ما يتردد على مسامعي دوماً أن هذا الموقع فقير من الناحية الأثرية، لكنني على يقين جازم أنه ليس كذلك، بيد أن هذا الأمر يحتاج إلى نفس طويل في البحث.

أثناء العمل في الحفريات كنت أتساءل دوماً عن الرسمة الشهيرة (الأسد والثور)؛ وبصرف النظر عن النقش الكتابي المقترن بها، كنت أقول: ترى هل لرسمة الأسد علاقة بصنم يغوث؟ الذي ذكرت المصادر التاريخية أنه كان منصوباً بجرش، وكان على شكل أسد، فهل أصبح الأسد رمزاً دينياً لجرش فرسماً على جدرانها؟ وهنا تساؤل آخر: ترى هل لرسمة الثور الذي يصارعه الأسد علاقة برواية الثور الشارد لصاحبة زيد بن أسلم؟ الذي ذبحه في هذه البقعة وجرش ما حمل عليه من شعير، وكل من أجابه وأكل لحمه يومئذ كان جرشياً، وبالتالي ربما أصبح الثور مرتبطاً بمسمى المدينة، وبات رمزاً قومياً لها، وقد يعتبر البعض ذلك شيئاً من السذاجة في التحليل والتفكير، لكنها على أي حال تساؤلات لعلها تثير اهتمام بعض الباحثين^(١).

ولفت انتباهي في هذا الموسم عملية ترميم بعض المباني الأثرية في جرش، وفي رأيي أن هذا الترميم لم يكن بالجودة والاحترافية اللازمة، مما شوه صورة المكان وهيبته، فعندما تنظر إلى البناية الرئيسية في الموقع يُخيل إليك أنك أمام منشأة رومانية بيزنطية؛ ذلك بسبب الأعمدة القصيرة المضافة والمبنية بقطع الحجر، فبعد اكتشاف الأساسيات الحجرية القديمة للمسجد الجامع الذي يعتقد أنه قائم على أنقاض معبد قديم، أو على أساسات حصن جرش الأقدم، فقد دُفنت تلك الأساسات الحجرية للأعمدة بالطين حتى ارتفعت، ثم وضعت هذه الأعمدة الجديدة فوقها بحجة إبرازها لتكون ظاهرة للعيان، وهو الأمر الذي - في تقديري - غير الصورة النمطية للمبنى، خاصة وأنه واجهة الموقع، وبالتالي فقد أخذ الصحفيون والإعلاميون في كل مناسبة يركزون على تصوير هذه الأعمدة وكأنها أعمدة حقيقية!^(٢)

(١) جرش المذكورة في الكثير من المصادر الإسلامية المبكرة، ولها ذكر في بعض المصادر والمخطوطات اللاتينية، وإذا جمعت هذه المصادر، ثم دعت بالدراسات الأثرية المادية والمعنوية، فسوف نصل إلى بعض العلوم والمعارف التاريخية والحضارية التي لم نطلع عليها حتى الآن. (ابن جريس).

(٢) ترميم المواقع الأثرية عبر العصور يجب أن يتولاها أناس عالمون وعارفون بأهمية الأثر، وإذا لم يتوفروا

نلاحظ الترميم السيء والركيك للجدار الغربي للحصن، فعندما تنظر إلى البناء القديم تجد أمامك أحجاراً ضخمة مبنية بدقة متناهية، ومتناسقة فيما بينها لا تكاد تدخل الشعرة بينها، أما بناية الترميم فهي أشبه ببناء الأفغان للحجر في وقتنا الحالي، فترى بين الأحجار الكبيرة التي تمت البناية بها، أحجاراً صغيرة تم دسها بعشوائية لسد الفراغات الكثيرة، بينما البناء القديم تراه مبنياً بحرفية عالية الدقة ومنحوتة أحجاره ببراعة لا تلاحظ بينها أي فراغ، مقارنة بالترميم العشوائي والبدائي الذي زيف الآثار.

وفي هذا السياق تذكرت العناصر الأساسية والمهمة في استثمار الآثار التي ذكرها الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، ومنها قوله^(١): يجب أن يؤخذ في الاعتبار، وعلى مدى الأيام والسنين؛ أن الآثار تبقى آثاراً في مواقعها، ولا تخضع في كل الأحوال لإعادة بناء شامل، وتستمر صيانتها على الحال الذي اكتشفت فيه، ويعوض عن ذلك بأسلوب المحاكاة بواسطة الأفلام التوضيحية التي تقرب للذهن الصورة التي كان عليها الأثر، وأن تكون النماذج بين الآثار المعمارية والصناعات بأسلوب مبسط، حتى لا يصبح الزيف هو الشائع، ويتبين للزوار والمهتمين والسياح أنهم خدعوا عند اطلاعهم على الآثار الثابتة أو المنقولة، ومن المسلم به أن الآثاريين هم المسؤولون أولاً وأخيراً عن إدارة جميع المواقع الأثرية، وهم الأقرب لملاحظة المتغيرات، وما هو مقبول وما هو غير مقبول إدخاله في المواقع والمعالم التاريخية، ولا بد من وجود لجنة علمية وفنية متخصصة لإدارة كل موقع تاريخي وأثري على حدة^(٢).

مما يدهشني على الدوام هو ذلك الرحي الكبير؛ إذ طالما تردد خبره على مسامعي من كبار السن الذين يسمونه رحي (ثمود)، زعماً منهم أنه يعود لقوم ثمود! وهذا بالطبع نزيير من الأساطير الدارجة حول هذا الرحي العجيب، الذي يحركه بيده رجل عملاق! كما تصوره الخرافات الشعبية، ومن ذلك أيضاً أسطورة غريبة يرددتها بعض أهالي المنطقة وخصوصاً ذوو الشيبة منهم؛ وهي أن الملكة بلقيس اتخذت من جبل حمومة مقراً لها، حينما مرضت وهي في طريقها إلى الحجاز، وكانت ترسل لها الأطباء والغزلان من الساحل عبر طريق أثري قد اندثرت اليوم معظم معالمه، يسمى (درب الكافر) أو (محش الصيد)، كان يمتد من الساحل غرباً، ثم يصعد جبال السراة مروراً بالقرعاء، لينتهي عند جبل حمومة، وكانت تطلق كلاب السلق لتجري وراء الأطباء

فيكون من القائمين على البناء والترميم أساتذة أو خبراء يساعدونهم في الحفر والبناء مع مراعاة القواعد العلمية المتبعة في إعادة الآثار وترميمها، ويكونون على علم بالتاريخ والحضارة الخاصة بكل مكان يراد ترميمه. (ابن جريس).

(١) نقلاً من كتاب (قصة البحث عن جرش)، محمد أحمد معبر، ص ٩٦-٩٧ (عبدالكريم القحطاني).

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٦-٩٧. (عبدالكريم القحطاني).

والغزلان حتى تصل إلى مقر إقامة الملكة بليقيس بجبل حمومة، ومن الخرافات حول هذا الجبل، أنه مسكون بعفاريت تحمي كنزاً مدفوناً في ذروته، وغير هذا عن جُرش وجبل حمومة كثير، يقصه الناس قديماً في السمر للمتعة والإثارة^(١).

والمفيد في هذا الموسم أنني رافقت زملائي من طلاب كلية الهندسة، واستفدت من طرق وأساليب الرفع الساحي التي يقومون بها في جُرش، ومما رأيت في هذا الموسم التناير الفخارية التي اكتشفتها البعثة السعودية، وبدت كأنها بحالة جيدة وممتازة، ومن جهة أخرى زارنا في هذا الموسم وفد حكومي على رأسه محافظ أحد رفيدة الأستاذ متعب آل متعب وزيارة أخرى من وكيل جامعة الملك خالد الأستاذ الدكتور سعد العمري؛ للاطلاع على آخر مستجدات التنقيب الأثري في جُرش^(٢).

وبعد هذا الموسم أدون بعض الآراء حول جُرش، مثل:

(أ) موقع جُرش لا ينبغي أن يكون في ذيل قائمة الآثار في السعودية. فهو أهم موقع أثري في منطقة عسير، ومن أبرزها على مستوى المملكة، ونهيب بالهيئة سرعة تهيئة الموقع، وعمل المتطلبات اللازمة للسير نحو تسجيله في اليونسكو. (ب) عندما كنت أبحث في التراب عن خفايا البلدة البائدة، فيثار حولي الغبار محضوفاً بغابر التاريخ، أثناء العمل في الحفريات غامرني شعور مشجع، هو أنني لست ضيفاً كغيري على هذه البقعة؛ ذلك بحكم انتمائي لمحيطها الجهوي والقبلي، وأؤكد أن هذا الشعور لم يخالطه شيء من العنصرية التي أمقتها. (ج) لا يخفى على أحد تراث عسير الباهر، فهناك آثار مدهشة تواري تاريخاً سحيقاً يثرى المكتبة العربية والعالمية، وأنا على يقين جازم أن جبال عسير ووديانها وشعابها وكافة أغوارها ما زالت تخبئ الكثير من الآثار التي لم تكتشف بعد، وهي بحاجة لأعمال مسح ميدانية شاملة، ينبغي أن تجرى موسمياً، بشكل منظم ودوري، تقوم بها فرق علمية متخصصة ومرخص لها؛ حتى تسفر أكثر عن بيان القيمة التاريخية لعسير وللوطن^(٣). (د) لا يمكن أن نسلم للمصير الغامض الذي انتهت إليه هذه المدينة، بمعنى أن الوباء يقتل إنساناً لكنه لا يدمر مدينة ويذرها قاعاً صنفصفاً وقصة الوباء هذه لا تكفي؛ فالمعطيات الأثرية تشير إلى أن المدينة تعرضت

(١) الناظر في كتب التراث الإسلامي يجدها لا تخلو من القصص الخيالية، والأساطير، وأحياناً الخرافات وهناك على مر التاريخ قصاص ورواة يسردون قصصهم ورواياتهم الأسطورية، ثم تسرب شيء منها إلى التراث المكتوب، وما ذكرته يا عبد الكريم في ورقتك يدخل تحت هذه القصص الخرافية، وبلاد السروات وتهامة مليئة بقصص من هذا النوع، وينبغي أن تجمع وتدرس وتحلل ثم تطبع وتشر. (ابن جريس).

(٢) أرجو أن تكون مثل هذه الزيارات حققت شيئاً في خدمة وتطوير البحث العلمي الأثري، مع أنني لا أعتقد ذلك، لأننا نفتقد إلى العمل المؤسسي في هذا الميدان. (ابن جريس).

(٣) هذا الذي نفتقده حالياً، أرجو أن نرى آثار عسير وعموم السروات وتهامة مرعية ومخدومة علمياً وقانونياً وتوثيقاً. (أبن جريس).

لتخريب وتدمير شديد للغاية. (هد) أعرف أن الطريق إلى اليونسكو ليس سهلاً؛ فالمعايير صعبة والشروط معقدة، لكن سوف نرى جُرش-بأذن الله-وقد وصلت إلى ساحه (فونتوا) بباريس.

ثالثاً: خاتمة القول:

صدق صاحب القول عندما قال: "إن معول الحفار هو عماد علم الآثار" فأعمال الحفر والتنقيب عن الآثار لها الدور الكبير في الكشف عن مخلفات الإنسان المادية في الماضي، فأعمال التنقيب ستظل في معظم جوانبها تعتمد على المهارات اليدوية التقليدية والعين المتخصصة والاستنتاج الذكي، مستعينا في ذلك بأدوات يدوية تقليدية بسيطة، وهذا ما قاله وأكدّه عالم الآثار (مرزوق بته).

ومن هذه التجربة الثرية في التنقيب خلال المواسم الأربعة؛ تعلمت أساسيات ومهارات التنقيب الأثري، واكتسبت خبرة لا بأس بها في هذا المجال، وعرفت طريقة تنظيم العمل داخل المربع؛ لضمان دقة العمل والنتائج وإمكانية ومراقبة كل ضربة فأس بالمربع، وتدريب على الحفر بعمق متساوٍ في حدود عشرة أو خمسة عشر سنتيمتراً بشكل منتظم في كل مربع، ومع الممارسة استُطعت التغلب على بعض المشكلات الفنية التي تعترض المنقب؛ منها على سبيل المثال: تحديد أساسات المبنى، خاصة إذا كان المبنى قد تعرض لتعديلات وتحويرات أو سلب لأحجاره عبر العصور، كما تنشأ بعض المشكلات من جراء تفكك المباني خاصة تلك التي بُنيت من كتل حجرية غير منتظمة.

وقد حاولت اكتساب مهارة تصور الآثار المنقب لماهية المبنى وتخطيطه وإعمال الذهن في مقارنته بمبانٍ تراثية مشابهة في البلد الذي يحضره أو أي حضارة أخرى مع وضع عدة تساؤلات للإجابة عنها، يمكن من خلالها وضع الخطة المناسبة للكشف عن المبنى، وتأتي على رأس هذه التساؤلات-كما ذكرت- ماهية المبنى ومخططه، وطريقة بنائه، وتاريخه، والعصور التي مر بها، وهل تعرض لتعديلات وتحويرات، وما هي الإضافات، وغيرها من التساؤلات، ومما تعلمته وقمت به كثيراً هو عملية التسجيل الأثري بوضع كل قطعة من القطع الأثرية التي عثرنا عليها في كيس خاص، مرفقاً بها بطاقة يتم فيها تدوين المعلومات من حيث نوع القطعة ووصفها ورقم المربع الذي عثر عليها فيه، وكذلك رقم الطبقة التي جاءت منها، بالإضافة إلى اسم الباحث الذي عثر عليها، ثم يتم تصنيفها إلى مجموعات وفقاً لأنواعها ومواقعها، فمثلاً يحتفظ بالقطع الفخارية لوحدها والزجاجية لوحدها، وقد سجلت اسمي على عدد من القطع الأثرية التي عثرت عليها ودونتها^(١).

(١) أرجو أن تواصل عملك واهتمامك بالآثار في جُرش وغيرها من منطقة عسير، كما أرجو أن تتحلى بالصبر والعمل الدؤوب، وإن فعلت ذلك فقد تسير قدماً نحو خدمة بلادك وأهلك، وميدان التراث والآثار. (ابن جريس).